

## 11 راية الخير

وبعد :

"فقد افتضحت الجاهلية، وبدت سوأها للناس، واشتد تدمير الناس منها، فهذا طور انتقال العالم من قيادة الجاهلية إلى قيادة الإسلام"<sup>(١)</sup>.

بهذه البساطة عبر سيد قطب / عما يرى.

إنه يتحدث عن أمر عظيم جليل، وانتقال ضخمة، لكنه من أمر الحقائق.

ولهذا حفته البساطة، وكذلك شأن الحقائق دومًا.

فحينما يكون الأمر حقيقة لا يحتاج إلى كثير بلاغة، ولا إلى إطناب، أو

يهرج وتزويق.

إنها الحقيقة التي يعيشها الغرب، فهذا الخواء الروحي، والانحدار

الجنسي، والتمييز العنصري، والظلم الاستعماري، لم يعد إفلاسا مجردًا، بل

فضيحة كبيرة للحضارة الغربية.

وهي الحقيقة التي ترهق المجتمعات الشيوعية، ولو لم يكن فيها إلا

الإرهاب وكبت الحريات لكفتها فضيحة.

كما أنها الحقيقة التي تشير إلى عدل الإسلام، وسماحته، وسكينة التي

يهدئها إلى القلوب التي أتعبها قلق المادة.

إن تأملا قصيرًا يرينا بوضوح أن شعوب الأمة الإسلامية قد ملت

وسئمت ما اقتبسوه لها من مادية الغرب ونظمه، وما فطنوا له فقلدوه من

(١) مقدمة سيد قطب لكتاب الندوى: ماذا خسر العالم بالخطط المسلمين / ٢٠.

أساليب الإرهاب والتجويع الشيوعي، وأصبحت القلوب والعقول على أتم الاستعداد لمسيرة إياب إلى الإسلام ثانية.

ولكن بينها وبين الوصول إلى دار السلام مفازة.

ولابد للمفازة من دليل.

وشرط الدليل أن يكون خبيراً مميزاً للأثر، متفرساً، ناظراً في أبراج السماء.

فإن وجد الدليل فإن الوصول قريب.

### جاذبية الدعاة

وخير ما يكون الدليل إذا كان حادياً يجيد الترجم.

إنه يطرب الذين وراءه، فيتبعونه.

وهذا هو ما تصوره بلاغتنا القاهرة، لأن من يتبع طرباً قد تعثره غفلة،

أو تفجؤه عثرة، أو تغلبه إغفاءة، فيتوقف.

أما بلاغة إقبال فأتى وأكمل وأبدع.

إنه يجد في إدراك الذات قوة جذب تجبر الآخرين على الارتباط بها، فإذا

جمع المسلم الحر الفطن ذاته فكان داعية فإنه يدير من يريد في فلكه.

يقول إقبال:

شدت الأرض قواها، فالقمر

في طواف حولها، لا مستقر<sup>(١)</sup>.

فلأن الأرض تحفزت، وخزنت من قوة الجذب ما استطاعت أجبرت القمر على الارتباط بها، والدوران حولها، حتى بات لا يحدث نفسه بفرار. فكذلك التفاف الناس حول دعوة الإسلام يكون حتميا إذا شد الدعاة قواهم، حتى يعتاد الناس الدوران في فلകهم، ويجدون في ارتباطهم بالدعوة نوع اضطرار.

فأنتم أنتم أيها الدعاة من يتحكم في الأمر.  
لا نهاء لأحزاب الضلال إن شددتم قواكم.  
ولا مناص للناس آنذاك، إنما هم أسراكم.  
وإنما شد القوة في الاجتماع.  
ونتيجة الاجتماع أن يكون الصف.  
ومن أتى صفا غلب، إلا أن يشاء الله غير ذلك.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنِينَ مَرْصُوصٌ

﴾ [الصف].

وتنادى السحرة الذين عارضوا موسى قبل إيمانهم، فقالوا: ﴿فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفًّا﴾ [طه: ٦٤] كما أخبر الله -تعالى، وبذلك عبروا عن التجمع المنظم للجاهلية في كل عصورها من خلال هذا الشعار الذي يعطي درسا بليغا لمن يحزن على مصير المسلمين وليس لديه إلا التأوه.  
إن الجاهلية المنظمة لا يغلبها إلا إسلام منظم.

ولا ينتصر دعاة الإسلام اليوم، إلا إذا جمعوا خيرهم ثم أتوا صفا واحدا متراصا مقتحما.

## ارفع للخير راية

ولكن كيف يتم التجمع بلا مبادأة من صاحب خير؟

إنها المبادأة اللازمة، تارة تكون تكبيراً ينبه، وتارة تكون نازراً تلفت، وتارة تكون راية يبصرها أهل الخير فيتجمعون حولها، ولا ينقص المسلمين اليوم في كثير من البلاد إلا هذه الراية، فإنهم كثير عددهم غزير عملهم، جميل ذكركم، إنما أضعفهم التشتت والضياح.

وقد زار عبد الوهاب عزام / معظم بلاد الإسلام، وساح في بلاد العرب وتركيا والهند، ودرس واقع المسلمين عن قرب، فما خرج بغير هذه النتيجة، فعاد ينادي الخيرين أن:

(لا يخذعنكم الفساد الظاهر والشر المستشري، ولا يهولنكم ذكر فلان وفلان من المفسدين، ففي الأمة أختار أكثر ممن تعدون من الأشرار، ولكنها راية رفعت للشر فأوى إليها أشرارها، وهرع نحوها أنصارها، ونفر منها الأخيار فلم ينحازوا إليها، ولم نسمع أصواتهم حولها، ولو رفعت للخير راية لانحاز إليها الأخيار وحفوا بها وسكنت أمة الأشرار وقل جمعهم وخفت ذكركم).

إن في الأمم خيراً وشرّاً، وفساداً وصلاًحاً، ومصلحين ومفسدين، فإن رفعت راية للخير انضوى إليها الأخيار في كل طائفة، وغلب بها الخير في الأنفس التي يغلب شرها خيرها، ونبت خير في نفوس لا خير فيها، فإن الإنسان لا يخلو - وإن عظم شره واستشري دأؤه - من نزعة للحق كامنة، وعاطفة للخير مستسرة <sup>(١)</sup>.

(١) الشوارد لعبد الوهاب عزام / ١٧٣.

وهذا الكلام من الحق والصواب الظاهر.

وكثير من أهل الخير إنما وقعوا في الأوهام من هاهنا، رأوا ضخامة الفساد في بلادهم، وتغير الموازين والمقاييس، وتسلبت الأشرار، فظنوا أن الأمر قد فلت، واستحكم الكفر، واختاروا إما السكوت وإما الهجرة إلى بلد أخف شرًا يتعطلون فيه.

### الهجرة المفضولة

وقبل، حين استحكم أمر الجهمية والمعتزلة والشعبوية أيام المأمون والمعتصم، والوائق، ووسدت الأمور إلى غير أهلها، تألم القائد العربي الغيور أبو دلف القاسم العجلي، وكان من كبار أهل الخير، صحيح العقيدة، ظاهر النبل، مناهضًا للشعبوية التي يرهاها بعض القادة، فاندفع يقول:

ومقام الكريم في بلد الهـوون      إذا أمكن الرحيل محال  
حيث لا رافعا لسيف من الضيم      ولا للكفاءة فيها مجال  
في بلاد يذل فيها عزيز القوم      حتى يناله الأنـذال<sup>(١)</sup>

ثم هاجر في معسكره بمدينة الكرخ التي تقع أطلالها اليوم على الطريق الذهاب من العراق إلى خراسان، قبيل كرمانشاه، وهي غير الكرخ المعروفة ببغداد.

كان حرًا، لكنه كان فردًا، ولذلك لم يأب الهجرة، أما الإمام أحمد ابن حنبل، فكان في تلك الأزمة حرًا داعية، ولذلك أبى الهجرة، وأقام ببغداد، ورفع الراية، فكان الثبات، والتثبيت، فهزم جمع البدعة.

(١) كتاب (بغداد) لابن طيفور/ ١٣٣.

وهكذا شأن الحر الداعية دومًا، يصبر على العيش والمقام في بلده، ليلتقط من مجتمع مستخذ فتيانا صباح الوجوه، لم يصب قلوبهم وأبدانهم شيء من دنس الجاهلية وأمراضها وحرامها، ويربيهم ويغرز فيهم عزة الإسلام، ويجعلهم صفوفًا.

نعم، في المجتمع المستخذي الذي طال خضوعه للطغيان، تجدد (النفس تميل إلى الإسفاف، وتخلد إلى الراحة، وتهوى الهين من كل أمر.

ولكن في النفس -على هذا- نزوعا إلى العلاء، وشغفا بالارتقاء، وحنينا إلى المكارم، وشوقا إلى العظام.

إن فيها لجمرة يغطيها الرماد، وشرارة يقدحها الزناد، فإن وجدت نافخا في جمرها وقادحا لشرارها استيقظت، وتحفزت، وعملت، وصعدت. وكلما ذاق لذة العمل والرقى زادت حبا له، وهياما به <sup>(١)</sup>.

ولهذا فإن المهاجر مخطئ، إلا هجرة صاحب سر يخشى عليه، أو هجرة صاحب فقه إلى من يحتاج إليه، أو هجرة من يخشى الفتنة في دينه.

أما السكوت فأبعد عن الصواب، (والذين يبصرون بالظلم في كل طريق، ويلتقون بالبغي في كل ثنية، لا يحركون يدًا ولا لسانًا، وهم قادرون على تحريك اليد واللسان أولئك لم يعمر الإسلام قلوبهم، فلو عمرها لانقلبوا مجاهدين) <sup>(٢)</sup>.

ومن هاهنا لا يكون المؤمن العامر القلب إلا متحركًا محرّكًا، أما المتباطئ الذي يعد بالالتحاق بعدما تظهر بوادر النجاح فإنما يعد وعد الضعاف.

صاح ما الحر من يثور على الظلم — ثم وقد ثارت لحقها الأقوام

(١) الشوارد لعزام/ ٣٥٣.

(٢) دراسات إسلامية لسيد قطب/ ٢٩.

إنما الحر من يسير إلى الظل ———— ثم فيصميه والأنام نيام <sup>(١)</sup>

### إنما تقدسنا الدعوة

وكان أعيان الفقهاء القدماء يميزون مثل هذه المعاني أكثر من المتأخرين، وأرجعوا العز الذي عرفه صدر الإسلام إلى وجود الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فمن ثم، قالوا: إنه (هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوى بساطه وعمله لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد، وقد كان الذي خفنا أن يكون، فإنا لله وإنا إليه راجعون، إذ قد أندرس من هذا القطب عمله وعلمه) <sup>(٢)</sup>.

قال ذلك الغزالي /.

فللذي رآه، فتش عن المخرج والمستدرك فلم يجد إلا أسلوب الطلائع، وراح يحلي الأجر لمن يكون طليعة، ويحكر له درجات القرب، ويرفع الأبصار إلى ذراها، ويصيح أن أيها الناس:

(من سعى في تلافي هذه الفترة، وسد هذه الثلمة، إما متكفلاً بعملها، أو متقلداً لتنفيذها، مجدداً لهذه السنة الدائرة، ناهضاً بأعبائها، ومتشمرًا في إحيائها كان مستأثراً من بين الخلق بإحياء سنة أفضى - الزمان إلى إمامتها، ومستبدًا بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها) <sup>(٣)</sup>.

وأما الذي قررناه من أمر الهجرة فقد سبق إليه الصحابة **ي**.

(١) ديوان المثاني لعزام / ٨٠.

(٢) (٣) إحياء علوم الدين ٢ / ٣٠٦.

قال ابن تيمية:

(قال أبو هريرة: لأن أرباط ليلة في سبيل الله أحب إلى من أن أقوم ليلة القدر عند الحجر الأسود. ولهذا كان أفضل الأرض في حق كل إنسان: أرض يكون فيها أطوع لله ورسوله، وهذا يختلف باختلاف الأحوال، ولا تتعين أرض يكون مقام الإنسان فيها أفضل، وإنما يكون الأفضل في حق كل إنسان بحسب التقوى والطاعة والخشوع والخضوع والحضور، وقد كتب أبو الدرداء إلى سلمان: هلم إلى الأرض المقدسة! فكتب إليه سلمان:

إن الأرض لا تقديس أحدًا، وإنما يقديس العبد عمله، وكان النبي ﷺ قد آخى بين سلمان وأبي الدرداء، وكان سلمان أفقه من أبي الدرداء في أشياء من جملتها هذا) <sup>(١)</sup>.

فالعمل هو الذي يقديس صاحبه، وأفضل العمل: أمر بمعروف ونهي عن منكر، وأفضل الأمر والنهي: ما كان في بلد يحتاج إليه ويثمر فيه، فلا تحدد نفسك بزهد مجرد يقودك إلى الهجرة عن موطن النفع بل أصغ لابن القيم يشرح لك أمر حين يقول:

(ليس الدين بمجرد ترك المحرمات الظاهرة، بل بالقيام مع ذلك بالأوامر المحبوبة لله، وأكثر الديّانين لا يعبئون منها إلا بما شاركهم فيه عموم الناس، وأما الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصيحة لله ورسوله وعباده، ونصرة الله ورسوله ودينه وكتابه، فهذه الواجبات لا تخطر ببالهم فضلًا عن أن يريدوا فعلها، وفضلًا عن أن يفعلوها. وأقل الناس دينًا، وأمقتهم إلى الله: من ترك هذه الواجبات، وإن زهد في الدنيا جميعها،

وقلّ أن ترى منهم من يحمر وجهه ويمعره الله ويغضب حرّماته، يبذل عرضه في نصرة دينه<sup>(١)</sup>.

والنبي ﷺ (كانت ساعاته موقوفة على الجهاد بقلبه ولسانه ويده، ولهذا كان أرفع العالمين ذكراً، وأعظمهم عند الله قدراً)<sup>(٢)</sup>.  
ولك فيه ﷺ أسوة وقدوة.



(١) عدة الصابرين/ ١٢١.

(٢) زاد المعاد ٢/ ٣٨.